



المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

تحليلات استراتيجية | 17 أيلول / سبتمبر، 2024

من الهجوم المضاد إلى الغزو المضاد: كيف غزت القوات المسلحة الأوكرانية روسيا؟

تحليل استراتيجي رقم 9

عمر عاشور

وحدة الدراسات الإستراتيجية

من الهجوم المضاد إلى الغزو المضاد: كيف غزت القوات المسلحة الأوكرانية روسيا؟

سلسلة: تحليلات استراتيجية

تحليل استراتيجي رقم 9

وحدة الدراسات الإستراتيجية

17 أيلول / سبتمبر، 2024

أستاذ الدراسات الأمنية والعسكرية ومؤسس برنامج الدراسات الأمنية النقدية بمعهد الدوحة للدراسات العليا، ورئيس وحدة الدراسات الاستراتيجية في المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. متخصص في تحليل أسلوب قتال الدول الصغيرة والأطراف الأضعف، والتكيفات والابتكارات والتحولت العسكرية، والحروب غير المتكافئة والتقليدية وغير النظامية والهجينة، وتقييم الفاعلية القتالية والعسكرية، وتحليل أنظمة التسليح، ومكافحة التمرد والإرهاب والتطرف العنيف، والتحولت الجماعية من العنف إلى السلم. له عدة مؤلفات، منها: *The De-radicalization of Jihadists: Transforming Armed Islamist Movements* (Routledge, 2009)؛ و"كيف يقاتل تنظيم الدولة (داعش)؟ التكتيكات العسكرية في العراق وسورية وليبيا ومصر" (المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2022)؛ وهو محرر كتاب "من السلاح إلى السلام: التحولت الجماعية للحركات المسلحة" (المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2022). ويعمل حالياً على مشروع بحثي بعنوان "الدفاع الهجين للدول الأصغر: تقييم الفاعلية القتالية للقوات المسلحة الأوكرانية".

جميع الحقوق محفوظة للمركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات © 2024

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات مؤسسة بحثية عربية للعلوم الاجتماعية والعلوم التطبيقية والتاريخ الإقليمي والقضايا الجيوستراتيجية. وإضافة إلى كونه مركز أبحاث فهو يولي اهتماماً لدراسة السياسات ونقدها وتقديم البدائل، سواء كانت سياسات عربية أو سياسات دولية تجاه المنطقة العربية، وسواء كانت سياسات حكومية، أو سياسات مؤسسات وأحزاب وهيئات.

يعالج المركز قضايا المجتمعات والدول العربية بأدوات العلوم الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية، وبمقاربات ومنهجيات تكاملية عابرة للتخصصات. وينطلق من افتراض وجود أمن قومي وإنساني عربي، ومن وجود سمات ومصالح مشتركة، وإمكانية تطوير اقتصاد عربي، ويعمل على صوغ هذه الخطط وتحققها، كما يطرحها كبرامج وخطط من خلال عمله البحثي ومجمل إنتاجه.

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

شارع الطرفة، منطقة 70

وادي البنات

ص. ب: 10277

الظعائن، قطر

هاتف: +974 40354111

www.dohainstitute.org

المحتويات

- 1 مقدمة: جسيم من «الجمود»
- 2 أولاً: الطريق الوعر إلى كورسك: لماذا فشل الهجوم المضاد عام 2023؟
 - 2 1. كيف نُفِّذ الهجوم المضاد؟
 - 3 2. لماذا فشل؟
- 4 ثانيًا: ثم أتت كورسك
- 5 أَعْرُ، حَصَّن، واحتلّ
- 5 ثالثًا: كيف تغزو روسيا غزوًا مضادًا؟
- 7 خاتمة: تداعيات استراتيجية
- 8 المراجع

مقدمة: جسيم من «الجمود»

«ثمة حركة لأول مرة منذ فترة طويلة ... شعرتُ ثانيةً أنني نمر»، يقول أنجول، الجندي من اللواء 33 مشاة مجنزر في القوات المسلحة الأوكرانية (ZSU)، وهو لواء درّبه حلف شمال الأطلسي «الناتو» ومجهّز بتسليح غربيّ الصنع¹. عكست مقولة أنجول شعوراً بحيويةٍ جديدةٍ داخل القوات المسلحة الأوكرانية، التي كانت قد تراجعت في الأشهر الماضية.

فمنذ تحرير مدينة خيرسون في 11 تشرين الثاني/ نوفمبر 2022، لم تحقق القوات الأوكرانية أيّ نجاحاتٍ عملياتية كبيرة في المجال البري². وسقطت باخموت³، البلدة-الحصن التي دافعت عنها أكثر ألويتها خبرةً، في أيار/ مايو 2023، على يد مجموعة فاغر بمساعدة خليط غريب للغاية من وحدات من المجرمين المدانين المفرج عنهم والجنود المحترفين في وحدات مجوقلة ومدفعية وقوات جوية نظامية⁴.

لم يحقق الهجوم المضاد الأوكراني عام 2023 أهدافه؛ جزئياً لأنه كان واحداً من أكثر الهجمات المضادة في التاريخ العسكري التي أُعلن عنها مسبقاً وحظيت بتغطية إعلامية مكثفة، على نحو أفقده المفاجأة والصدمة. فلم تتمكن أوكرانيا من تحرير أي من البلدات المحتلة مثل توكماك أو بيرديانسك أو مدينة ماريوبول؛ لقطع خطوط الاتصال البرية الاستراتيجية بين الحدود الروسية وشبه جزيرة القرم أو شطر القوات الروسية على الجبهتين الجنوبية والشرقية.

وزاد الأمر سوءاً بالنسبة إلى أوكرانيا، حين استولت القوات الروسية، في شباط/ فبراير 2024، على أفدييفكا واحتلتها، بعد أن كانت هذه البلدة-الحصن الأخرى في منطقة دونباس قد قاومت الهجمات الروسية وتصدّت لها، منذ عام 2014⁵.

وفي آذار/ مارس الماضي، بدت آفاق أوكرانيا قاتمة. فقد حققت عملياتها في المجالين البري⁶ والجوي⁷، انتصارات لافتة وإبداعات بارعة في الحرب الإلكترونية والسيبرانية والقتال عن بعد، وأظهرت تكتيكات فعالة في المجال البري، وسجّلت معدّلاً للخسائر المتبادلة/ معدل استنزاف مطلقاً ما زال لمصلحة القوات الأوكرانية، ورغم ذلك لا تزال هذه القوات المخضمة والفعالة قتالياً تخسر الأرض، بوجه عام. من ضمن ذلك قرى ومساحات كانت قد حررتها الهجمات المضادة في خريف عام 2022 وصيف عام 2023.

لماذا فشل الهجوم المضاد الأوكراني عام 2023؟ وما علاقته، من الناحية التكتيكية والاستراتيجية، بأول غزو مضاد على الإطلاق للاتحاد الروسي منذ ولادته المتعثرة في كانون الأول/ ديسمبر 1991؟ يهدف هذا التحليل الاستراتيجي إلى الإجابة تحليلاً عن هذين السؤالين.

1 "Ukraine's shock raid deep inside Russia rages on," *The Economist*, 11/8/2024, accessed on 16/9/2024, at: <https://tinyurl.com/mr49r2cp>

2 Omar Ashour, "Russia-Ukraine War: Will Western Tanks End The War?" *Middle East Eye*, 21/2/2023, accessed on 16/9/2024, at: <https://tinyurl.com/mwuv9dvt>

3 "ما أهمية معركة باخموت في الحرب الروسية الأوكرانية؟"، *الجزيرة نت*، 2023/3/27، شوهد في 2024/9/16، في: <https://tinyurl.com/3wn2cz4j>

4 "Ukraine's Offensive: Dr. Omar Ashour Reveals the 6th Phase of the War," UATV English, YouTube, 22/5/2023, accessed on 16/9/2024, at: <https://tinyurl.com/5n6m66vd>

5 Alex Babenko, "Exhaustion, Dwindling Reserves and a Commander Who Disappeared: How Ukraine Lost Avdiivka to Russia," *AP*, 11/3/2024, accessed on 16/9/2024, at: <https://tinyurl.com/4bjwrcpr>

6 Ibid.

7 Jonathan Beale & Thomas Spencer, "Ukraine's Long-Range Drones Using Western Tech to Hit Russia," *BBC*, 29/8/2024, accessed on 16/9/2024, at: <https://tinyurl.com/mr4yjsrc>

أولاً: الطريق الوعر إلى كورسك: لماذا فشل الهجوم المضاد عام 2023؟

تبقى عملية كورسك الحالية والتقدم الروسي في الدونباس كلاهما تفريعين مباشرين للهجوم المضاد الممدوح بدايةً والمخفق نهايةً، والذي شهدته صيف عام 2023. ويكتسي فهمنا لهذه الخلفية أهمية قصوى⁸.

كان الهجوم المضاد الأوكراني عام 2023 هو الهجوم المضاد الثاني⁹ منذ أن بدأ الغزو الشامل في شباط/ فبراير 2022¹⁰. وأسفر الهجوم المضاد الأول عن تحرير¹¹ مدينة خيرسون وأجزاء كبيرة من مقاطعة خاركييف في خريف عام 2022. وبخلاف الأخيرة، كان تقدم أوكرانيا في صيف عام 2023 بطيئاً¹²؛ إذ إن الاستنزاف الثابت كان مهيماً على أسلوب القتال، لا المناورات السريعة.

وقد قدّر عديد من المحللين العسكريين الغربيين أنّ المدرعات الأوكرانية الغربية الصنع ستخترق الخطوط الدفاعية الروسية في الجنوب وتُنَجِّج الهجوم. لكنهم أفرطوا في تفاؤلهم، على الرغم من الأسباب الوجيهة التي وقفت وراء توقعاتهم¹³.

1. كيف نُفِّذ الهجوم المضاد؟

زار الباحث أوكراني لإجراء بحث ميداني، في صيفي عامي 2023 و2024؛ وكان ذلك من أجل فهم أفضل للوضع العسكري وتداعياته الأمنية/ الدفاعية على أوكرانيا وعلى دول صغيرة نسبياً (أو أصغر نسبياً)، مثل قطر وغيرها من دول الخليج والشرق الأوسط وأوروبا الشرقية¹⁴.

كانت أوكرانيا، آنذاك، قد بدأت المرحلة السادسة من حرب عام 2022¹⁵ بشنّ هجومها المضاد الثاني الذي ركز على مقاطعتي زابورجيا ودونيتسك، مع جهود ثانوية في مقاطعتي لوهانسك وخيرسون وهجمات مستمرة في شبه جزيرة القرم المحتلة.

بعد فترة من العمليات التمهيديّة، اتضحت للمحللين ثلاثة محاور للتقدم¹⁶. كان المحور الأول عبر أوريخيف في مقاطعة زابورجيا، وهدفه هو الوصول إلى توكماك، ثم ميليتوبول، وفي الحالة المثلى إلى حدود شبه

8 لفهم الخلفية الإجمالية لهذه الأزمة الاستراتيجية، ينظر: عزمي بشارة، "روسيا وأوكرانيا وحلف الناتو تأملات في الإصرار العجيب على عدم تحبّب المسار المؤدي إلى الحرب"، *دراسات*، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2022/2/27، شوهد في 2024/9/16، في: <https://tinyurl.com/bdcmnk3p>; "ندوة أكاديمية للمركز العربي تناقش أسباب الأزمة الأوكرانية وتداعياتها الإقليمية والدولية"، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2022/2/22، شوهد في 2024/9/16، في: <https://tinyurl.com/5n8jdvup>

9 Omar Ashour, "Russia-Ukraine War: Will Kyiv's Counteroffensive be a Game Changer?" *Middle East Eye*, 7/9/2022, accessed on 16/9/2024, at: <https://tinyurl.com/4fhdkww2>

10 عموماً، هذا هو الهجوم المضاد الخامس منذ بداية الحرب عام 2014، إذ شُنّ الأول في صيف 2014. وقد أدّى إلى تحرير كراماتورسك وسلوفيانسك وماريوبول وبلدات أخرى ووصل إلى الحدود الروسية في آب/ أغسطس 2014. لفهم خلفية ذلك، ينظر: مجد أبو عامر، "أوكرانيا: التطورات العسكرية التقليدية وغير التقليدية والمقاتلون الأجانب"، *سياسات عربية*، مج 10، العدد 58 (أيلول/ سبتمبر 2022)، ص 145 - 151.

11 Ashour, "Russia-Ukraine War."

12 Nick Paton Walsh et al., "'We Expected Less Resistance': Ukrainian Troops on Southern Front Learn Not to Underestimate Their Enemy," *CNN*, 9/8/2023, accessed on 16/9/2024, at: <https://tinyurl.com/559whppp>

13 Jonathan Beale, "How Tanks from Germany, US and UK Could Change the Ukraine War," *BBC*, 28/1/2023, accessed on 16/9/2024, at: <https://tinyurl.com/w52mra6w>

14 Omar Ashour, "With the Veterans," *X*, 30/7/2023, accessed on 16/9/2024, at: <https://tinyurl.com/mphyp4j7>

15 "Ukraine's Offensive: Dr. Omar Ashour Reveals the 6th Phase of the War."

16 "Military Briefing: Ukraine's Daring 'Shaping Operations' Stretch Russian Defences," *Financial Times*, 30/5/2023, accessed on 16/9/2024, at: <https://tinyurl.com/52nywdcs>

جزيرة القرم. وكان الثاني عبر فيليكا نوفوسيلكا في مقاطعة دونيتسك، وهدفه على الأرجح الوصول إلى بيرديانسك أو ماريوبول، وكلاهما على بحر آزوف. وكان محور التقدم الثالث في اتجاه باخموت، ومن المرجح أن هدفه استعادة البلدة، أو على الأقل تثبيت بعض وحدات النخبة المجوقلة الروسية التي حلت محل مقاتلي فاغنر في باخموت، وبذلك مَنع تناوبها أو إعادة انتشارها في الجنوب¹⁷.

شُنت غارات وعمليات أصغر نطاقاً على الضفة اليسرى لنهر دنيبرو في مقاطعتي خيرسون وميكولايف؛ هدفها تأمين مواقع حصينة bridgeheads وتوسيعها في كوزاتشي لاهيري أولاً، ثم في كرينكي وقرى أخرى لاحقاً. وكانت النتيجة الرئيسية تثبيت بعض الوحدات الروسية واستنزافها في مناطق الغارات أو بالقرب منها.

شاركت في الهجوم المضاد تشكيلات في حجم كتائب وسرايا من جميع الألوية الجديدة الاثني عشر التي أنشأتها أوكرانيا خلال حرب عام 2022¹⁸. كانت تسعة من هذه الألوية قد تلقت بعض التدريب في الغرب¹⁹. وكان معظم جنودها من المدنيين الذين عُبِّتوا حديثاً، وبعض هذه الألوية مسلحة بمركبات مشاة برادلي أميركية الصنع، ودبابات ليوبارد ألمانية الصنع، أو بأنظمة ومعدات أخرى غربية الصنع. لكن معظم الأسلحة والمعدات كانت لا تزال من حيث الصنع أوكرانية أو روسية أو سوفياتية²⁰.

كان الهجوم المضاد لعام 2023، الذي حظي بدعم غربي كبير، محاولة متعددة الجهود للاقتراب من شبه جزيرة القرم، وقطع خطوط الاتصال البرية بينها وبين الحدود الروسية، وشرط القوات الروسية، وقطع طرق إمدادها اللوجستية الداخلية. وكانت خطة العمليات لهذه المرحلة معقدة، لكنها واقعية. وكان الدعم الغربي (ولا يزال) متأخرًا على نحو مؤذٍ، بطيئًا بصورة قاتلة، لكنه متزايد ومستمر وسخيٍّ سخاءً مذهلاً²¹ (حتى عند مقارنته بمتلقين آخرين كبار للمساعدات الأميركية، مثل إسرائيل والأردن وجمهورية أفغانستان الإسلامية سابقاً ومصر).

2. لماذا فشل؟

كان لنوع القوات، على الجانب الأوكراني، وكَمِّها وبنية القوة وتوظيفها ونُظْم الأسلحة والذخائر تأثيراتٌ كبرى في نتائج العمليات. وثبت من حيث النوع والكفاءة أنه من الصعب تحويل العتاد إلى قدرات، وتشكيل ألوية جديدة من جنود معبئين حديثاً في غضون بضعة أشهر، ثم نشرهم لتنفيذ مناورة هجومية بأسلحة مشتركة ضد الدفاعات الروسية المجهزة جيداً، حتى مع توافر الدعم الغربي.

وعمِل الافتقار إلى التكافؤ الجوي وقلة نُظْم الدفاع الجوي القصيرة المدى وذخيرتها المحدودة في الخطوط الأمامية الجنوبية، على إعاقة تقدّم تشكيلات المشاة الميكانيكية الأوكرانية. وأثبتت الهجمات الجوية الروسية (لا سيما طائرات الهليكوبتر الهجومية من طراز KA-52) فاعليتها في عرقلة تقدم المدرعات والمشاة الأوكرانية²². وساهمت محدودية معدّات إزالة الألغام ومعدات الجسور المحمولة والجرافات القتالية في إبطاء وصول قوات التحرير الأوكرانية.

17 ف.ح.، عقيد في قوّات الهجوم الجوي الأوكرانية DShV، مقابلة شخصية، كييف، تشرين الأول / أكتوبر 2023.

18 س.إ.، مُقدم في الحرس الوطني الأوكراني NGU، مقابلة شخصية، كييف، تموز / يوليو 2023.

19 أوليكساندر ف. دانييلوك Oleksandr V. Danylyuk، المستشار الرئيس السابق لوزير الدفاع الأوكراني، مقابلة شخصية، تالين، 2024/5/17.

20 أو.س.، نقيب في لواء المشاة الآلي المنفصل رقم 47 بالقوات البرية الأوكرانية، مقابلة شخصية، كييف، 2023/10/13.

21 Jonathan Masters & Will Merrow, "How Much U.S. Aid Is Going to Ukraine?" *Council on Foreign Relations*, 9/5/2024, accessed on 16/9/2024, at: <https://tinyurl.com/2yupr7j7>

22 أندري زاجورودنيوك Andriy Zagorodnyuk، وزير الدفاع الأوكراني السابق، مقابلة شخصية، وارسو، 2023/10/3.

وكان الهجوم المضاد الأوكراني عام 2023 متوقعًا، ولم يتضمّن أيّ مفاجآت²³، بخلاف ما حدث في خاركيف عام 2022، وفي كورسك عام 2024.

أما على الجانب الروسي، ففي الجنوب كان لدى القوات الوقت الكافي لإعداد دفاعات قوية في الأراضي المحتلة. وشمل ذلك حقول ألغام أوسع وأعمقٍ وخنادقٍ مضادة لعبور الدبابات وحواجز ما يُعرف بـ «أسنان التين» ومجمعاتٍ خنادقٍ وأنفاقٍ ذات نقاط قوة ومخارج خفية، تتمكن بفضلها الوحدات الروسية من شنّ هجمات مضادة مفاجئة من مواقع غير متوقعة، أحيانًا خلف خطوط التقدم الأوكرانية (بعضها لم يكن مُؤمّنًا نظرًا إلى أزمة القوة العددية manpower، التي عانتها أوكرانيا، ولا تزال، خاصة عامي 2023 و2024)²⁴.

وكان التأخير في تسليم الدروع الغربية للقوات الأوكرانية قد منح القوات الروسية الوقت الكافي لتعبئة قواها ومناوبتها. وشمل ذلك إعادة تكوين الوحدات في زابوريجيا وتعزيزها وإعادة نشرها عام 2023؛ وكان قد سبق لهذه الوحدات نفسها أن انهارت في خاركيف عام 2022.

تعمل الوحدات المكوّنة من مجرمين مدانين مفرج عنهم (ما يُعرف بالألوية «ستورم-زد») تحت إشراف وزارة الدفاع الروسية، بعد أن جندتها مجموعة فاغنر، وقادتها من قبل. وشكّلت الوزارة ألوية جديدة فيها كثير من المدنيين المعبّئين حديثًا، وذلك في أعقاب موجة من «التعبئة الجزئية». وقد أثّرت ستورم-زد والألوية المعبّئة في القوات العاملة الإجمالية وكثّفت خطوط الدفاع الروسية، وبذلك حلّت مؤقتًا مشكلة القوة العددية (الدفاعية) للجنود الروس.

أما في الشرق فكان لمجموعة فاغنر تأثيرٌ دائم، على الرغم من مغادرة معظم وحداتها أوكرانيا بعد تمرد الفاشل في حزيران/يونيو 2023 ومسيرتها نحو موسكو. لقد استنزفت فاغنر وأنصارها في الوحدات المجوقلة والمدفعية والقوات الجوية بعض الألوية الأوكرانية الأكثر خبرة في أثناء القتال على باخموت، حيث كانت نسب استنزاف القوات العاملة لمصلحة القوات الأوكرانية؛ إذ إنّ بعض التقديرات يشير إلى أنّ روسيا خسرت خمسة جنود على الأقل مقابل كلّ جندي أوكراني قُتل. ورغم ذلك، أعطت معركة باخموت الروس الوقت الذي كانوا في أمسّ الحاجة إليه ليعززوا مواقعهم الدفاعية في الجنوب²⁵.

استطاعت القوات الروسية، بصورة عامة، عام 2023، أن تتكيّف وتبدع، وكان ذلك في الغالب ردة فعل على ضروب التكيف والإبداع لدى القوات الأوكرانية. وهذا ما جعل تحرير الأراضي الأوكرانية حرب استقلال مكلفة يُرجّح أن تستمر فترةً أطول؛ لذلك كانت أوكرانيا في حاجة إلى مفاجأة عملياتية أو استراتيجية لتغيير مسار الموقف العسكري.

ثانيًا: ثم أنت كورسك

قال الرئيس الأوكراني فولوديمير زيلينسكي، شاركًا المنطق الاستراتيجي لأوّل غزو مضاد مجنزر للاتحاد الروسي منذ إنشائه في كانون الأول/ديسمبر 1991، إنّ «الهدف الرئيس لهذه الخطة هو إجبار روسيا على إنهاء الحرب. وأنا أريد ذلك بشدة - [سيكون ذلك] عادلًا لأوكرانيا»²⁶.

23 المرجع نفسه.

24 م. ت.، رائد في القوات البرية الأوكرانية، مقابلة شخصية، كييف، 2023/10/16.

25 "NATO Estimates Russia Lost 5 Times more Soldiers in Bakhmut than Ukraine," CNN, 6/3/2023, accessed on 16/9/2024, at: <https://tinyurl.com/28r7zk9z>

26 Olena Harmash & Tom Balmforth, "Ukraine's Zelenskiy to Present Plan to Biden to End War with Russia," Reuters, 28/8/2024, accessed on 16/9/2024, at: <https://tinyurl.com/4m5ch6et>

وهو «أول» من نواحٍ كثيرة. فغالبًا ما كانت الغارات البرية على روسيا – تلك الغارات التي بدأتها في آذار/ مارس 2023 قوات معارضة روسية مسلحة بدعم من جهاز أمن أوكرانيا SBU وإدارة المخابرات الرئيسية (العسكرية) HUR - عبارة عن غارات في مقاطعات بريانسك وبييلغورود وكورسك. وخلال هذه الغارات، لم تظهر أي محاولات جادة للاحتفاظ بأراضي روسية.

أغْر، حَصَّن، واحتلّ

كان الأمر هذه المرة مختلفًا. ففي آب/ أغسطس 2024، أطلقت تشكيلات نظامية من القوات المسلحة الأوكرانية في حجم فرقة مناورة هجومية مفاجئة متعددة المجالات²⁷. ثم تحصنت استعدادًا للدفاع عن الأراضي التي استولت عليها. ثم احتلت تلك الأراضي بإنشاء مكتب للإدارة العسكرية²⁸.

استندت العملية إلى الطريقة الروسية المعتادة: «أغْر، حَصَّن، واحتلّ»، لكنها نُفذت ضد القوات الروسية VSRF، بدلاً من أن تنفذها هذه القوات ضد قوة أوكرانية أو جورجية أو شيشانية أو مولداوية أو طاجيكية أو سورية أو غير ذلك (سواء أكانت لدولة أم لغير دولة). وأطلق عليها الأوكرانيون اسم «عملية عسكرية خاصة». كانت هذه التورية مقصودة بشدة ومرارة.

كانت الصور ومقاطع الفيديو التي تظهر مركبات المشاة القتالية الألمانية الصنع (ماردير) والمركبات القتالية المدرعة ذات العجلات المصنوعة في الولايات المتحدة الأميركية (سترايكر) والدبابات القتالية الرئيسية المصنوعة في بريطانيا (تشانجر)، وهي تتجول فوق الأراضي الروسية، رمزية للغاية، بالنظر إلى تاريخ كورسك. ففي تموز/ يوليو وآب/ أغسطس 1943، كانت المقاطعة موقعاً لواحدة من أعظم المعارك المدرعة في تاريخ الحروب خلال الحرب العالمية الثانية.

غير أنّ نُظُم الأسلحة السوفياتية والأوكرانية والروسية كانت هي الغالبة في الصور المرئية في المصادر المفتوحة على الأقل. وما عدا الموقع الجغرافي والتوقيت الصيفي وربما المدة، لم يكد يتوافر أي وجه شبه مع معركة كورسك عام 1943، من حيث التخطيط والمفاجأة والفاعل والهويات والأهداف وأحجام القوات والنطاق والدرجة والشدة، والمتغيرات الأخرى ذات الصلة بتحليل المعارك.

ثالثاً: كيف تغزو روسيا غزواً مضاداً؟

بدأت «العملية الخاصة» في كورسك، في 6 آب/ أغسطس 2024، باندفاع كثيفة نسبياً وبأسلحة مشتركة، مستفيدةً من ضربات عميقة متتالية وهجمات متزامنة، بقوة تضاهي حجم لواء في البداية ثم تضخمت، وذلك عبر خمسة مجالات للعمليات على الأقل (برية وجوية وإلكترونية وسيبرانية واستخباراتية/ معلوماتية). ووظّفت، عبر هذه المجالات، العديد من الدروس القاسية المستفادة من الهجوم المضاد عام 2023 (الذي استعرضناه آنفاً).

كانت المفاجأة، كما أوضح صن تزو قبل أكثر من ألفي عام²⁹، مفتاح نجاح العمليات، سواء في هجوم خاركيف المضاد عام 2022، والآن، في غزو كورسك المضاد عام 2024. وكان أمن العمليات الأوكراني مرتفعاً للغاية؛

27 Siobhán O'Grady & Serhiy Morgunov, "Ukraine's Kursk Incursion Already Has Its Own Museum Exhibit in Kyiv," *The Washington Post*, 7/9/2024, accessed on 16/9/2024, at: <https://tinyurl.com/2rvjwfmr>

28 Olena Harmash & Tom Balmforth, "Ukraine Opens Military Office in Occupied Kursk Region, Says It Is Still Advancing," *Reuters*, 15/8/2024, accessed on 16/9/2024, at: <https://tinyurl.com/yc8j2rej>

29 Sun Tzu, *The Art of War* (Leicester: Allandale Publishing, 2000), pp. 47 - 49.

لتجنّب كوارث الهجوم المضاد عام 2023، فلم يكن قادة الألوية وبعض جنرالات الأركان على علم بالخطة. ومن المرجح أنّ الاتصالات مع الحلفاء كانت قليلة أو معدومة ولم تصدر أيّ تصريحات إعلامية (بخلاف سيل التصريحات عام 2023 عن الهجوم المضاد)³⁰.

في مجال المعلومات، صرّح المسؤولون الأوكرانيون علناً أنهم قلقون حيال توغّل روسي في منطقة سومي، على غرار هجوم خاركيف 2024. وجعل هذا حشد قوات في المنطقة مجرد إشارة إلى موقف دفاعي بحت. وبذلك مارست أوكرانيا على هيئة الأركان العامة الروسية عملية «تحكّم انعكاسية» سوفياتية الطراز³¹.

تكمّن السيطرة في المجال البري، كما هو الحال دائماً. فقد نفذت القوات المسلحة الأوكرانية تقدماً متعدد المحاور، ودمجت بين الاندفاعات المدرعة والدعم الناري الدقيق والانغماسات المجوقلة والدفاعات الجوية الأرضية المتحركة. وعملت رؤوس حراب مؤلّلة سريعة تقودها طائرات مراقبة ثم طائرات هجومية من دون طيار، على تحطيم العقد والمواقع الروسية القليلة في خطّين دفاعيين روسيين. وجرى تحييد أهداف رفيعة القيمة، من بينها مراكز لوجستية ومخازن للذخيرة وعقد قيادة وتحكّم، بقصف صاروخي مدفعي منسق (بواسطة راجمات صواريخ هيمارس HIMARS بصورة أساسية)، ما أمّن السيطرة وتشتيت التدابير الروسية المضادة.

شارك أيضاً المجالان الإلكتروني والجوي في العمليات. وجرى تقريب أصول الحرب الإلكترونية من ساحة المعركة، وصولاً إلى نقاط التماس، لتكون قادرة على التشويش جزئياً على الاتصالات بين المستويات الروسية. كان هذا محفوفاً بالمخاطر، نظراً إلى كثافة الطائرات الروسية من دون طيار والمدفعية الأنبوبية والصاروخية. وبدا أنّ التقدم بهذه الطريقة، تكتيكياً، يستحق المخاطرة³².

عُرّضت المدفعية الصاروخية المتنقلة وأصول الدفاع الجوي الأرضي المتنقلة للمخاطر ذاتها؛ وكان الهدف هو تغطية التقدم العميق لوحدات المشاة الآلية والدبابات الأوكرانية بـ «سقف قاتل من الصواريخ»، على غرار عملية «المآذن العالية» المصرية في غرب سيناء في تشرين الأول/أكتوبر 1973.

كان هذا التعرّض للمخاطر أيضاً جديراً بالعناء لقمع الدفاعات الروسية، شاملاً إسكات المدفعية المضادة وتهديد الطيران العمودي والثابت-الجناح الروسي، لكنّه كلف أوكرانيا منظومة هيمارس HIMARS واحدة، ومنظومة BUK-M1 واحدة، ونظام دفاع جوي SA-3 واحداً على الأقل. وكان المصريون قد استخدموا النسخة السوفياتية من المنظومة الأخيرة في تشرين الأول/أكتوبر 1973 (ودُمّرت أيضاً في الهجوم المضاد الإسرائيلي على مناطق ومدن غرب قناة السويس).

تمكنت القوات المسلحة الأوكرانية من تطبيق عدد من الدروس المستفادة من الهجوم المضاد لعام 2023، بما في ذلك الاستخدام المناسب للمركبات المدرعة الغربية الصنع ومعدات إزالة الألغام، واختيار وحدات أكثر خبرة باعتبارها رأس حربة للهجوم بدلاً من الألوية المشكّلة حديثاً (حتى لو كانت مدربة لدى الناتو ومجهزة بمنظومات غربية الصنع، وثبتت كفاءتها العالية في التدريبات)، ومكاملة الأسلحة في عملية متعددة المجالات، والأمن العملياتي رفيع المستوى، الذي أدّى إلى مفاجأة ضاعفت شدّة الهجوم وفتكه.

30 James Marson, "Ukraine General's Plan Surprised the Russians—and His Own Troops," *The Wall Street Journal*, 31/8/2024, accessed on 16/9/2024, at: <https://tinyurl.com/6yyc7mwz>

31 ML Jaitner & H Kantola, "Applying Principles of Reflexive Control in Information and Cyber Operations," *Journal of Information Warfare*, vol. 15, no. 4 (Fall 2016), pp. 27 - 38.

خاتمة: تداعيات استراتيجية

إنّ عملية كورسك 2024 مرشحة، استراتيجياً، لتكون ذات وزن كبير، إذ إنها هدفت إلى إعادة تشكيل ديناميات ساحة المعركة وسردياتها الجيوسياسية. وتشمل الأهداف الرئيسية تبادل أسرى الحرب والسيطرة على مزيد من الأرض من أجل المفاوضات المستقبلية، وكلاهما يتطلب انخراطاً دبلوماسياً صعباً وربما طويلاً. ويبدو التبادل الأولي لمئاتٍ من أسرى الحرب أمراً واعدًا، لكنّ المفاوضات المباشرة على تبادل الأراضي لا تزال تبدو بعيدة.

أما عملياً فإجبار الروس على إعادة نشر قواتهم من جبهات هجومية في دونيتسك (وتحديدًا من قطاعات بوكروفسك وتوريتسك وتشاسيف يار وفوهليدار) وخاركيف، لم يحظ إلا بنجاح محدود. فقد حُوّلت وحدات نخبة روسية من مشاة البحرية والمظليين، للدفاع عن كورسك، لكنّها لم توقف التقدم الروسي أو تبطله على نحو حاسم في دونيتسك، لا سيما نحو المركز اللوجستي والبلدة المهمة بوكروفسك.

وقد صُممت العملية لرفع الروح المعنوية الأوكرانية بصورة عامة، ومواجهة متلازمة «التعب من أوكرانيا» في الغرب، وإظهار قدرات القوات المسلحة الأوكرانية للشركاء الدوليين، وكذلك إخراج نظام الرئيس فلاديمير بوتين، وربما إضعافه على المستوى الداخلي.

تحققت التداعيات الثلاثة الأولى جزئيًا، أما التداعي الرابع والتأثيرات العامة في نظام الرئيس بوتين فلا تزال غير مؤكدة.

كان الفشل في غزو كييف، وهزيمة الجيوش والفيالق الروسية التابعة للمنطقة العسكرية الغربية في شمال أوكرانيا، على يد وحدات مسلحة أوكرانية أصغر حجمًا وأقل عتادًا واستعدادًا، ثم تمرد فاغنر وزحفها نحو موسكو، والعديد من التطورات الأخرى، كلها عوامل أخرجت بوتين علنًا، أما قدرة نظامه على الصمود وإصراره على شنّ الحرب على أوكرانيا دوليًا فلا يزالان راسخين إلى حد بعيد. وهذا ما يُكسب عملية كورسك 2024 نجاحًا تكتيكيًا مؤكدًا. أما تداعياتها العملية والاستراتيجية الكاملة فلا تزال تتكشف.

المراجع

1. العربية

أبو عامر، مجد. «أوكرانيا: التطورات العسكرية التقليدية وغير التقليدية والمقاتلون الأجانب». **سياسات عربية**. مج 10، العدد 58 (أيلول / سبتمبر 2022).

بشارة، عزمي. «روسيا وأوكرانيا وحلف الناتو تأملات في الإصرار العجيب على عدم تجنّب المسار المؤدي إلى الحرب». **دراسات**. المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. 2022/2/27. في: <https://tinyurl.com/bdcmnk3p>

2. الأجنبية

Jaitner, ML & H Kantola. "Applying Principles of Reflexive Control in Information and Cyber Operations." *Journal of Information Warfare*. vol. 15, no. 4 (Fall 2016).

Masters, Jonathan & Will Merrow. "How Much U.S. Aid Is Going to Ukraine?" *Council on Foreign Relations*. 92024/5/. at: <https://tinyurl.com/2yupr7j7>

Sun Tzu. *The Art of War*. Leicester: Allandale Publishing, 2000.